# الباب الثالث

# انحلال الدولة العبيدية

بدأ الضعف والانحلال يسريان في بدن الدولة العبيدية بداية من استئثار ولد بدر الجمالي بالحكم والسلطة دون المستنصر. بل لقد بالغ ولد الجمالي المسمّى الأفضل في الاستبداد والاستخفاف بالدولة، فأقصى ولد الملك العبيدي واسمه نزار عن العرش، وبايع أخاه الأصغر الأمير أبا القاسم أحمد بالملك، وتولى ذلك الملك الحكم سنة ٤٨٧ هجرية بلقب المستعلي بالله.

والحقيقة أن الأفضل خشي إن تولى نزار الملك أن يقصيه عن مناصب الدولة، ورأى أنه من الأنسب له أن يقود أبا القاسم حيث يشاء لصغر سنه ولقلّة تجاربه في شؤون الحكم والسياسة.

لكن المصريين لم يسكتوا على ذلك التجاوز من جانب الأفضل واضطربت الأمور وانتشرت القلاقل وأعلن أهل الإسكندرية خروجهم على الحاكم الجديد، وبايعوا نزاراً بالملك ولقبوه بالمصطفى لدين الله، ورحب به والي الإسكندرية ناصر الدولة أفتكين.

كان الخروج على أهم مبادئ الدولة العبيدية: وهو تولية الأعقاب أكبر شرخ في بدن الدولة، وتحدياً صارخاً لتاريخها.

ودارت المعارك بين الأفضل وأهل الإسكندرية، وهُزم الأفضل وارتد إلى القاهرة حيث جهز جيشاً ضخماً حاصر به الإسكندرية سبعة شهور، وما لبث نزار وأفتكين أن طلبا الأمان فأجابهما الأفضل وصحبهما عائداً إلى القاهرة، لكنه بعد قليل نكّل بهما تنكيلاً شديداً.

وسرعان ما انتشر خبر إقصاء نزار عن الحكم، فتعصّب له ناس كثيرون في مصر وفارس، ونشطت الإسماعيلية التي شعرت بالإهانة لتجاوز الأفضل واجترائه عليها إلى العمل على محاربة الأفضل ونادت بأن نزاراً هو الإمام المنتظر.

كان زعيم طائفة الإسماعيلية في بلدة ساوة من أرض فارس هو أحمد ابن عبدالملك بن عطاس، وكان من مريديه الحسن بن الصباح الذي تزعم الطائفة في أصبهان ورحل إلى مصر ليتفقه في أمور الدعوة في القاهرة.

فلما أن خلع الأفضل نزاراً، وكان الحسن قد سمع المستنصر يعلن أن خليفته هو نزار، ثار الحسن، وكان قد أطلق من الحبس على يد بدر الجمالي الذي نفاه إلى بلاد المغرب، وأخذ ينادي بإمامة نزار، ومن هنا أطلق على الحسن بن الصباح وأتباعه لقب النزارية، وأذاع أن المستعلي قد اغتصب الحكم من أخيه، وطالب بالقضاء على الأفضل والمستعلي.

كان الأفضل قد انفرد بشؤون الحكم من دون المستعلي، وبدأ نفوذ الوزراء يزداد ويعظم، وهيبة الحكام تنحسر وتذوي.

وحين توفي المستعلي خلفه ولده المنصور بن أحمد وتسمى بالآمر بأحكام الله وذلك سنة ٤٩٥ هجرية، وكانت سنه آنذاك خمس سنوات.

حدث في عهد الأفضل تحوّل خطير إلى مذهب أهل السنة؛ فقد ألغى الأفضل الاحتفال السنوي بمولد الرسول ﷺ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء – رضي الله عنها–، ومولد الخليفة القائم، وظل الأفضل مستبداً بالأمر لا يشاركه فيه أحد إلى أن كانت سنة ٥١٥ هجرية فأطاح برأسه أبو عبدالله محمد بن البطائحي وهو من خاصته بإيعاز من الملك الآمر بأحكام الله.

لم ينته عام ٥٢٤ الهجري إلا وقتل الملك الآمر، وتولى السلطة جيش البلاد الذي فوّض الأمير أبا اليُمن عبدالمجيد في الحكم، لكن ثار الجند على عبدالمجيد وولوا القيادة أبا علي بن الأفضل ثم الوزارة.

حرص أبو علي بن الأفضل على نشر مذهب الإمامية وإضعاف مذهب الإسماعيلية، وأسقط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة والدعاء للمهدي المنتظر، وسك عملة جديدة باسم الإمام المنتظر نقش عليها: الله الصمد، الإمام محمد. وألغى عبارة حيّ على خير العمل من الأذان، وآثر أن

يناديه الناس بألقاب اختارها منها: السيد الأجلّ الأفضل، والمحامي عن حوزة الدين.. وأمين الله على عباده، وأمعن في النيل من الإسماعيلية فعيّن قاضيين من الشيعة وقاضيين من أهل السنة.

ولم يلبث هذا الوزير أن لقي مصرعه بيد جماعة من الإسماعيلية كمنوا له، وسرعان ما أخلي سبيل عبدالمجيد وأعيد إلى الحكم باسم الحافظ لدين الله.

واحتفل العبيديون بالمناسبة وعدوا ذلك عيداً من أعيادهم وأطلقوا عليه اسم عيد النصر..

وسرعان ما أعلن الحافظ لدين الله نفسه حاكماً في ربيع الثاني سنة ٥٢٦ هجرية، وظل منصب الوزارة شاغراً إلى أن شغله بهرام الأرمني في جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هجرية.

تحيّز بهرام لجنسه من الأرمن، وأرسل فاستدعى ثلاثين ألفاً منهم. فاستبدوا بالناس وجاروا عليهم وشاحنوهم وأكثروا من تشييد الأديرة والكنائس.

استغاث أهل القاهرة وأمراء الجيش وقواده برضوان والي الغربية فأقبل في جند كثيف إلى القاهرة وانضم إليه الجند والأمراء، فخشي بهرام على حياته

وفر راحلاً عن القاهرة، وخلف رضوان بهرام في الوزارة سنة ٥٣٠ هجرية ولقب بالسيد الأجل الملك الأفضل.

استولى رضوان على أموال وأملاك أنصار بهرام وقتل الكثيرين منهم، ولم يلبث الحافظ أن قبض عليه في القصر، لكنه تمكن من الفرار، وجمع حوله الأنصار وناجز جند الحاكم لكن دارت النهاية عليه، فقد انتهى الأمر بهزيمته وقتله.

وسبحان من له الدوام.

بموت رضوان لم يتخذ الحافظ وزيراً، وجمع في يده السلطات جميعها حتى لقي ربه سنة ٥٤٤ هجرية، وخلفه ولده إسماعيل الذي لقب بالظافر بأمر الله، فولّى الوزارة الأمير نجم الدين بن مصال ولقبه بالسيد الأجلّ المفضل أمير الجيوش.

لكن ثارت ثورة بين أكابر الدولة وأعيانها، فالكل يطمح إلى الوزارة، فثار الأمير ابن السِّلار والي الإسكندرية وهجم على القاهرة مع جمع غفير من الأعوان، فولى ابن مصال فراراً واغتصب ابن السلار الوزارة وتلقّب بالعادل، وانطلق أعوانه يجوبون الآفاق حتى ظفروا بالفار وقضي عليه، ولما قضي على ابن مصال اضطر الظافر بأمر الله إلى إقراره على وزارته.

عمل ابن السلار على عودة المذهب السني إلى مصر، فأنشأ في الإسكندرية مدرسة للفقه الشافعي، وأسند إدارتها إلى فقيه شافعي المذهب هو الحافظ السلفي مما أحنق الحاكم العبيدي وأكابر الدولة، وسرعان ما لقي الوزير حتفه سنة ٥٤٨ هجرية، ولكن ربك بالمرصاد إذ سرعان ما لحق به الملك ولقي المصير نفسه من خليفة ابن السلار في الوزارة أبي الفضل عباس.

ثار الناس لمقتل الظافر، وانتشرت الثورات في الطرقات وسبّ الأهالي الوزير القاتل، حتى اضطر إلى الفرار إلى الشام لكن أيدي الغدر لحقته، ولقي حتفه مقتولاً.

وهكذا انحدرت الدولة إلى القتل والتصفية الجسدية واضطربت أمور البلاد، وصار الحكام ألعوبة في الوزراء.

بويع بالملك عيسى بن الظافر وكان طفلاً في الخامسة، ولقّب بالفائز بنصر الله.

اجتاح الرعب القصر العبيدي؛ إذ لم يطمئن أهله على مصائرهم فأرسلت الرسائل إلى والي الأشمونية طلائع بن رزيك تتعجله للقدوم إلى القاهرة والاستيلاء على السلطة.

لم يضيع طلائع الفرصة؛ فأقبل في جيش غفير وقضى على القلاقل، وأقرّ الأمن في البلاد، وتولى الوزارة وتلقّب بالملك الصالح، وسرعان ما استبد بأمر الدولة إلى أن توفي الفائز في شهر رجب سنة ٥٥٥ هجرية فأسرع طلائع بمبايعة العاضد وهو ابن الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبدالله، ولم يبلغ الحلم بعد، إذ هو في سن الحادية عشرة، والطريف أن طلائع أخذ بيد عبدالله وأجلسه إلى جانبه وأمر أن تُحمل إليه ثيابُ الملك فارتداها وبايعه طلائع وبايعه الناس.

تمت المبايعة للعاضد لدين الله في الثامن عشر من رجب سنة ٥٥٥ هجرية.

وهكذا استفحل نفوذ الوزراء، فتدخلوا في تولية الحكام.

سعى طلائع إلى السيطرة على الحاكم، فأسرع يزوجه من ابنته راجياً أن ترزق ابنته ولداً فيصير الملك لبني رزيك.